المحاضرة الثالثة: المفهوم السوسيولوجي للثقافة

عناصر المحاضرة:

1- مفهوم الثقافة
2- خصائص الثقافة
3- أنواع الثقافات
   3-1- الثقافة المضادة
   3-2- الثقافة الفرعية
   3-3- الثقافة التقليدية
   3-4- الثقافة الهامشية
   3-5- الثقافة الجماهيرية
4- أهمية الثقافة
5- مفهوم البناء أو البنية في علم الاجتماع
6- مفهوم البنية الثقافية (البناء الثقافي)
7- مكونات الثقافة

تمهيد:

إن تعيين الحدود الزمنية لظهور الثقافة، هو أمر في غاية الصعوبة، فالثقافة تنشأ عندما يظهر الإنسان نفسه، وبها يمتاز عن غيره من الكائنات، إذ أنها تحوي كل المنتجات الاجتماعية عبر السيرورة التاريخية للمجتمعات، بدء بالرسوم والنقوش داخل الكهوف، أدوات الصيد والزراعة والدفاع عن النفس، الطقوس السحرية والدينية، وما ارتبط بكل ذلك من أفكار وقيم ومعتقدات وعادات جمعية..، إنها ببساطة تمثل نموذج الحياة الاجتماعية، فلا يمكن تصور مجتمع إنساني دون ثقافة، فهي التي تمكنه من البقاء والاستمرار، وهي من تصنع خواصه وتمنحه هويته، الأمر الذي جعل مفهوم الثقافة من أهم المصطلحات، التي عنيت بدراستها كل العلوم الاجتماعية، وبخاصة علم الاجتماع. وضمن هذه المحاضرة، سنتناول المفهوم السوسيولوجي للثقافة، خصائصها، أنواعها وأهميتها.

1- مفهوم الثقافة

يعد مصطلح ثقافة من أكثر المصطلحات، التي أجهدت الفلاسفة والعلماء والباحثين، على اختلاف مشاربهم الفكرية، حيث لم يتم إلى حد الآن، صياغة تعريف دقيق حولها، لاسيما في تداخلها ومفهوم الحضارة **Civilisation** حيث تشير الأخيرة إلى نوع متقدم من المجتمعات، التي تتميز بدرجة متقدمة من الفنون والعلوم والدين والتنظيمات الاجتماعية. هذا، إلى جانب اتساع نطاق استعمالها، حيث أصبحت ترتبط بأساليب

الحياة، مثل: ثقافة النوادي، ثقافة الشوارع، ثقافة العقاقير.. إلخ، أو تشير إلى مجالات بعينها، مثل: الثقافة الرياضية، الثقافة الجنسية، ثقافة المستهلك..، وبحكم انتمائنا إلى الحقل السوسيولوجي، سوف نقوم بعرض أهم التعريفات، التي صاغها علماء الاجتماع حول المصطلح، وفيما يلي عرض لأهمها:

يعرف **كارل ماركس K.Marx** الثقافة بأنها:"كل القيم المادية والروحية، ووسائل خلقها واستخدامها ونقلها، التي يخلقها المجتمع، من خلال سير التاريخ". معنى هذا، أن الثقافة في مشمولها هي كل منتجات المجتمع، وهو يشترك إلى حد ما والأنثروبولوجي **إدوارد تايلور E.B.Tylor** في تعريفه الوصفي للثقافة، حيث تعني حسبه: "ذلك الكل المركب الذي يحتوي على المعرفة والاعتقاد والفن والأخلاق والقانون والعادات والتقاليد، وأي قدرات أخرى تكتسب بواسطة الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع". غير أن **ماركس** يبرز البعد التاريخي لها، مما يجعلها – ضمنيا – حاملة لخصائص التغير والتبدل أيضا.

ويذهب العالم الاجتماعي **ألفرد فيبر A.Weber** (شقيق **ماكس فيبر M.Weber**) في تعريفه للثقافة بأنها "تلك الأشكال الروحية للإنسان، وما تتضمنه من قيم ومقاييس وعادات وأفكار وانطباعات، لا يمكن القول أنها صحيحة أو غير صحيحة، وذلك لمرونتها ونسبيتها واختلافها من مجتمع لآخر، ومن فرد لآخر، ومن فترة زمنية لأخرى". يركز هذا التعريف، على الجانب غير المادي للثقافة، مبرزا نسبيتها، وبالتالي اختلافها بين التجمعات الإنسانية والأزمنة.

كما يعرف العديد من علماء الاجتماع الثقافة بأنها:"البيئة التي خلقها الإنسان، بما فيها المنتجات المادية وغير المادية، التي تنتقل من جيل إلى آخر، فهي بذلك تتضمن الأنماط الظاهرة والباطنة للسلوك المكتسب، عن طريق الرموز، والذي يتكون في مجتمع معين، من علوم ومعتقدات وفنون وقيم وقوانين وعادات وغير ذلك".

2- خصائص الثقافة:

تختص الثقافات الاجتماعية رغم تنوعها بخواص ثابتة، يمكن تلخيصها فيما يلي:

- الثقافة ليست سلوكا غريزيا أو فطريا في الإنسان، وإنما هي سلوك اجتماعي متعلم، يتم اكتسابه في البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها الفرد وتحديدا الأسرة، وهي لذلك لا تنتقل بيولوجيا بل عن طريق أهم العمليات الاجتماعية، التي يصطلح عليها بالتنشئة الاجتماعية **Socialization**.
- تختص الثقافة باستمراريتها، فهي ليست مؤقتة.
- الثقافة قابلة للانتقال والتوارث الاجتماعي، وذلك من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة عليها.
- تخضع الثقافة بحكم تناقلها وتوارثها عبر الأجيال وعلى مر التاريخ، إلى تغييرات وتبدلات تمس بعض مكوناتها كالعادات والمعتقدات والقيم، كما يمكن أن تتأثر بالثقافات المجاورة، نتاج

التواصل الثقافي بين المجتمعات والجماعات الاجتماعية، والمتمخض عن الهجرة والرحلات التجارية.. إلخ.

- تختص الثقافة بمقاومتها، فليست كل القيم أو العادات الدخيلة عليها تلقى القبول والانتشار مباشرة.
- الثقافة نسبية وليست متجانسة ومتماثلة بين كل المجتمعات، فما يعد طقسا دينيا في مجتمع ما قد يعد جريمة في مجتمع آخر، أو ما قد يعد مرغوبا ومستحبا في مجتمع ما قد يكون مستهجنا ومنبوذا في مجتمع آخر.
- تنظم الثقافة وتوجه المطالب الاجتماعية الأساسية، مثل: السلوك الجنسي، الحماية، المصاحبة، النظام والضبط الاجتماعي، وبعض الرغبات الأخرى المتصلة باللعب، الفنون، الدين والفلسفة، ومظاهر التعبير الأخرى.

3- أنواع الثقافات:

3-1- الثقافة المضادة Contraculture/ Contreculture: مجموعة من القيم والمبادئ الاجتماعية الخاصة بجماعة معينة، والموجهة ضد ثقافة المجتمع أو المتصارعة معها، مثل: ثقافة الاستعمار، ثقافة الجماعات المنحرفة .

3-2- الثقافة الفرعية Subculture: هي الثقافة التي تتكون داخل المجتمع الواحد. فتكون بعض الفئات لنفسها ثقافة خاصة تختلف عن الثقافة العامة للمجتمع الذي تعيش فيه تلك الثقافة الفرعية رغم تميزها عن الخط الثقافي العام للمجتمع، إلا أنها ليست منفصلة عنه تماما، بل هي تستمد أصولها منه، وترتبط به ارتباطا عاما، وتظهر الثقافات الفرعية عادة في المجتمع الذي يتميز بدرجة عالية من التباين، مثل تلك الثقافات التي تنشأ داخل جماعات عمر مختلفة (المراهقين أو الشباب..)، أو طبقات اجتماعية أو مهنية متباينة.

3-3- الثقافة التقليدية:

تمثل الثقافة التقليدية أو المحلية، فرعا من الثقافة الكلية أو العامة في أي مجتمع، وهو يعرف لدى علماء الإثنولوجيا والفلكلور بتسمية الثقافة الشعبية، فيما يستخدم علماء الاجتماع، مصطلح الثقافة التقليدية للدلالة عليه. يدل مصطلح الثقافة التقليدية على مكونات صنف الثقافة، التي تتواتر (تستخدم بشكل مكرر) بين عامة الجماعة الاجتماعية، وتصير مشاعا بينهم، بحيث يتداولونها على أنها من نتاج الخبرة الجمعية المشتركة، لهم – جميعا – الحق نفسه في استعمالها واستثمارها. هذا، ويجري تداول الثقافة التقليدية عن طريق التناقل الشفهي أو التواصل الشخصي المباشر، وترتكز أساسا على التقاليد والعادات المستمرة، في حياة الجماعة، بما يصاحبها من نظم قيمية وأخلاقية ومعتقدات وأعراف وتمثلات، والتي تنتقل بالتوارث الاجتماعي، بوساطة التنشئة الاجتماعية والتربية، عبر الأجيال. ويفترض ذلك حدا أدنى من تقنيات السيطرة على الطبيعة، والمعارف العملية المكتسبة والقابلة للنقل، وعددا معينا من القيم المشتركة الضامنة لعيش مشترك. وتتميز الثقافة التقليدية، ببطء

تغيرها ومقاومتها للتجديد، إذ تتصف بنوع من سيطرة الماضي، وبقوة ضغط العادات والتقاليد على الأفراد، وبنوع من السلطة والتراتبية الاجتماعية الصارمة. لذلك، يستخدم عدد غير بقليل من الباحثين، مصطلحات مثل الثقافة القديمة أو الثقافة الشعبية، للدلالة على الثقافة التقليدية.

3-4- الثقافة الهامشية:

تعرف **الثقافة الهامشية Marginal Culture** بأنها "الثقافة المتاخمة لثقافة أخرى، وتتصف عامة بأنها أفقر منها، من حيث الموارد التكنية والثقافة العامة، وبعبارة أخرى هي الثقافة التي "تقع على تخوم حضارية متقدمة". ويفهم من ذلك أنها الثقافة التي تتعايش داخل ثقافة مهيمنة، وتحاول أن تندمج معها، وهي تختلف عن **الثقافة الفرعية Subculture** التي تعني نمط متفرع عن الثقافة الكبرى أو الثقافة الكلية للمجتمع، وهي "تستعير منها رموزها وقيمها ومعتقداتها، غير أنها كثيرا ما تعرضها للتشويه، أو المبالغة، أو قد تقلبها رأسا على عقب". وتظهر الثقافة الفرعية عادة، داخل المجتمع الذي يتميز بدرجة عالية من التباين، تماما كالثقافة الهامشية. ومن أمثلة الثقافات الهامشية نذكر: ثقافة البداوة، ثقافة الجماعات الهامشية (النازحين من الأرياف، اللاجئين والمهاجرين غير الشرعيين..).

3-5- الثقافة الجماهيرية:

تمثل الثقافة الجماهيرية **Mass media** نمطا ثقافيا ناتج عن وسائل الإعلام الجماهيرية، وهي جزء من عملية نمو توحيد القيم والاتجاهات الثقافية بين الأفراد ضمن وحدات اجتماعية كبرى، وبمعنى أدق تستهدف الثقافة الجماهيرية تذويب الخصائص الثقافية للمجتمعات والجماعات الاجتماعية المختلفة ودمجها، لتكوين مجتمع كوني كبير تسوده أشكال متجانسة ومتماثلة من الفكر والقيم والممارسات والسلوك بما فيه الاستهلاك، وذلك للاقتراب من التوحيد الثقافي على المستوى الكوني. ولذلك، فالثقافة الجماهيرية وعلى عكس أنواع الثقافات الأخرى، لا ترتبط بمجتمع معين ولا تتركز داخل إقليم جغرافي معين.

4- أهمية الثقافة:

تبرز أهمية الثقافة من خلال الدور الأساسي والحاسم، الذي تؤديه في حياة الفرد والمجتمع، والذي يمكن إجماله في النواحي التالية:

- توفر الثقافة للفرد صور السلوك والتفكير والمشاعر، التي ينبغي أن يكون عليها، ولاسيما في مراحله الأولى، بحيث ينشأ على قيم وعادات تؤثر في حياته، بحسب طبيعة ثقافته التي عاش فيها.
- توفر الثقافة للأفراد تفسيرات جاهزة عن الطبيعة والكون، وأصل الإنسان ودورة الحياة.
- توفر الثقافة للفرد المعاني والمعايير، التي يستطيع أن يميز في ضوئها ما هو صحيح من الأمور، وما هو خاطئ.

- تنمي الثقافة الضمير الحي عند الأفراد، بحيث يصبح هذا الضمير فيما بعد الرقيب القوي على سلوكاتهم ومواقفهم (أو ما اصطلح على تسميته **إميل دوركايم E. Durkheim** بالضمير الجمعي)، فهي تجاوز للذات، وحاجة للمشاركة وضرورة للذوق والخلق.
- تنمي الثقافة المشتركة في الفرد شعورا بالانتماء والولاء، فتربطه بالآخرين في جماعته بشعور واحد، وتميزهم من الجماعات الأحرى.
- تكسب الثقافة الفرد الاتجاهات السليمة لسلوكه العام، في إطار السلوك المعترف به من قبل الجماعة.

5- مفهوم البناء أو البنية في علم الاجتماع

تتميز الثقافة في كل مجتمع أو جماعة اجتماعية، بشكل ومحتوى، فالشكل هو الهيكل أو البناء العام للثقافة، أما المحتوى فيشمل كل مكوناتها سواء المادية منها أو اللامادية، وضمن هذه المحاضرة سنركز على بنية الثقافة ومكوناتها (محتوياتها)، وهو ما أكدته الدراسات الاجتماعية، منذ عصور متقادمة، فالمجتمعات البدائية قد عرفت البنية والمكونات نفسها، التي عليها المجتمعات المعاصرة، ولكن تعقد الحياة الاجتماعية، بفعل عوامل التغير الاجتماعي وبخاصة عاملي النمو الديمغرافي والتكنولوجيا بما فيها الثورة المعلوماتية، قد أفضى إلى تنوع كبير في السمات الثقافية، وانتقالها وانتشارها بين المجتمعات، وبالتالي تعدد هائل في الأنماط الثقافية.

يستخدم مصطلح البناء بشكل واسع في حقل العلوم الاجتماعية، وبخاصة في علم الاجتماع، والبناء بمفهومه الواسع يدل على ذلك الكل المؤلف من الظواهر المتضامنة، بحيث تكون كل ظاهرة فيها تابعة للظواهر الأخرى، ومتعلقة بها، وبعبارة أخرى هو تنظيم دائم نسبيا، تسير أجزاؤه في طرق مرسومة، ويتحدد نمطه بنوع النشاط الذي يتخذه. بالنسبة لعلماء الاجتماع فإنهم يستخدمون مصطلح **البناء الاجتماعي/ أو البنية الاجتماعية Social Structure** للدلالة على النمط المقرر لأي نظام داخلي لجماعة ما، ويتضمن مجموع العلاقات الموجودة بين أعضاء الجماعة، وبعضهم البعض، وبينهم وبين الجماعة نفسها. وبعبارة أخرى، هو إطار المجتمع كعلاقة منظمة بين الوحدات الاجتماعية المختلفة (التجمعات القائمة على القرابة، الجنس والسن، المصلحة المشتركة، المكانة والمنزلة) أو كنموذج مقام تبعا لهذه العلاقة. وفي المجتمعات المتحضرة، يعتبر الحزب السياسي ونقابات العمال وما شابهها، هي التي تؤلف بناءها الاجتماعي.

6- مفهوم البنية الثقافية (البناء الثقافي):

وبالمقارنة والبناء الاجتماعي، فإن **البناء الثقافي Cultural Structure** يعني مجموعة السمات الثقافية والمركبات والأنماط أو الافتراضات الأساسية لمجتمع ما، وهو لذلك إطار الثقافة، إذا ما نظر إليه على أنه العلاقة المنظمة بين العناصر أو المركبات الثقافية المختلفة. وفيما يلي، تعريف للمصطلحات المذكورة، وذلك حسب أبرز علماء الأنثروبولوجيا، الذين اهتموا بدراسة البنية الثقافية، ونذكر أن علماء الاجتماع، قد اهتموا

بتأثير الثقافة على الظواهر والممارسات والفعل الاجتماعي، دون التركيز على البناء الثقافي نفسه. عير أن علماء الاجتماع، يستفيدون –وإلى حد كبير– من نظريات علماء الأنثروبولوجيا في هذا الخصوص.

- **السمات الثقافية Culture Traits:** يصطلح على تسميتها أيضا بالعناصر الثقافية، ويمثل العنصر الثقافي أصغر مكونات الثقافة. يعرفه **كروبير Kroeber** بأنه:"أدق عنصر يمكن تعريفه من عناصر الثقافة". وضمن الدلالة نفسها يعرفه **هيرسكوفيتس Herskovits** بأنه:"أصغر وحدة يمكن التعرف عليها في ثقافة معينة". ومن أمثلة السمات الثقافية نذكر: **طرق التحية، طرق وآداب الأكل**..إلخ.
- **المركبات الثقافية Culture Complexs:** مجموع من العناصر الثقافية المترابطة أو المتكاملة. ومن بين أهم التعريفات ندرج تعريف **هوبل Hoebel** بأنه:"نسق متكامل من العناصر الثقافية، التي تنتظم حول موضع اهتمام جوهري". وتعريف **جاكوبز وستيرن Jacobs and Stern** أنه:"أي مجموعة من العناصر الثقافية المتكاملة والمنمطة وظيفيا، داخل إحدى الثقافات أو منطقة ثقافية". بمعنى أن لكل جماعة اجتماعية أو مجتمع ضمن إقليم جغرافي معين، مجموعة من السمات الثقافية، التي تختص بها دون غيرها.
- **الأنماط الثقافية Culture Patterns:** يعرف النمط الثقافي بأنه:"تنظيم العناصر أو المركبات الثقافية في وحدة متكاملة". مما يعني أن النمط الثقافي يشير إلى نوعية ثقافة معين، طبقا لما تشتمل عليه من سمات ومركبات ثقافية مشتركة ومتداولة بين جماعة اجتماعية، فنحن نميز والحال هذه بين مجتمع وآخر بحسب النمط الثقافي الخاص بكل منهما. فعادات **الزواج** مثلا في **المجتمع الجزائري** ليست نفسها في **المجتمع الياباني** أو **المجتمع الإيطالي**، وذلك مرده لاختلاف الأنماط الثقافية داخل كل هذه المجتمعات، بكل ما تحمله من سمات ثقافية (الخطوبة، المهر..إلخ).

ومن ثم، يمكن تمثيل هيكل الثقافة أو بنيتها في كل مجتمع أو جماعة اجتماعية، كما يلي:

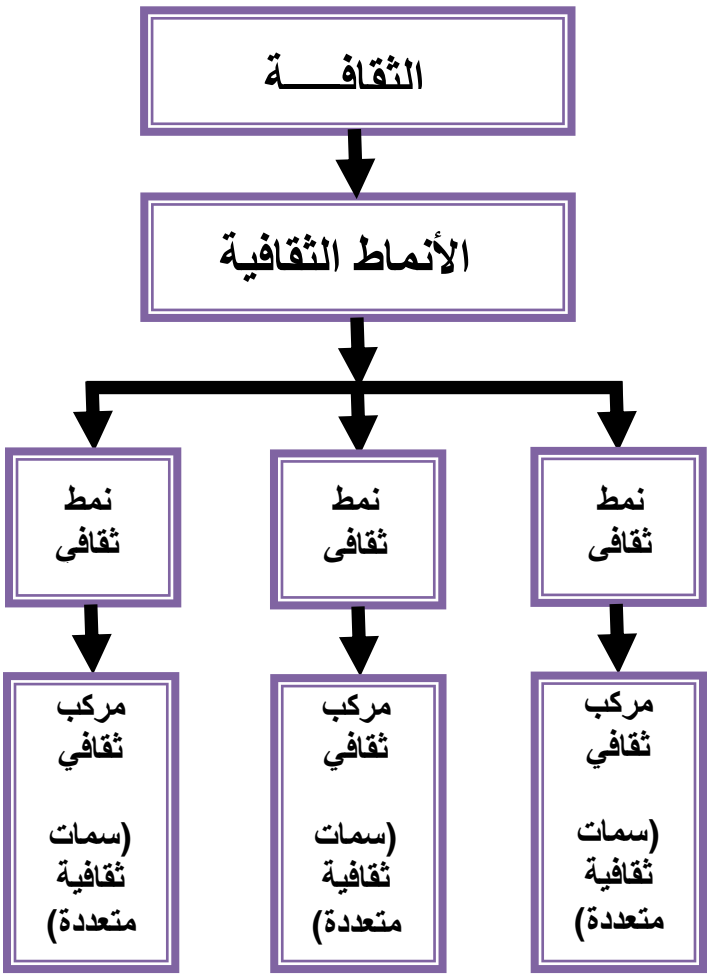

الشكل رقم (01) يبين مكونات الثقافة

7- مكونات الثقافة:

تجزأ الثقافة حسب علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، إلى قسمين رئيسيين أحدهما **مادي** والآخر **لامادي**، ويضم كل قسم منهما عددا من المكونات، نوردها على النحو التالي:

قسم الثقافـــــــــــة المادي	قسم الثقافـــــــــــة اللامادي
يشتمل قسم الثقافة المادي على كل المكونات المادية التي هي من صنع الإنسان أو الجماعة الاجتماعية، والتي تختص بها منطقة جغرافية أو إقليم جغرافي معين. مثل: أدوات الزراعة والصيد- الأسلحة والتكنولوجيا- الفنون المادية كالنحت- اللباس وطرق التمظهر والزينة- الأواني والطبخ.. إلخ.	يشتمل قسم الثقافة اللامادي على كل المكونات غير المادية (غير الملموسة) التي هي من صنع الإنسان أو الجماعة الاجتماعية، والتي تختص بها منطقة جغرافية أو إقليم جغرافي معين. مثل: الأغاني- الأدب والشعر- الألغاز والأحاجي- الخرافات والأساطير- الأفكار والمعتقدات الجمعية- المعايير والقيم.. إلخ.

خلاصة:

يعد مفهوم الثقافة من المفاهيم التي يصعب تحديدها، لأنها تشمل كل المنتجات الإنسانية وخبراتها ومحصلاتها عبر التاريخ، بحيث تخلق كل جماعة اجتماعية ثقافتها، هذه الأخيرة التي تلعب دورا محوريا في ضبط طبيعة العلاقات والتفاعلات الاجتماعية بين أفرادها، وذلك بوساطة مكونات بنيتها (المعتقدات، العادات، القيم..). فعلاقة الثقافة والمجتمع ترابطية، ولا يمكن تصور وجود أحدهما دون الآخر، بل إن هذا الوجود يتوقف على وجود الآخر.